

ملامح التخفيف في لغة العرب

Features of Mitigation in the Arabic Language

عثمان عبد الله محمود *

قسم اللغة العربية بجامعة بايرو، كنو- نيجيريا Danfodiyo2010@yahoo.com

تاريخ الوصول 2022.12.30 تاريخ القبول 2022.12.30 تاريخ النشر 2022.12.31

ملخص:

لعلّ اللغة العربيّة هي أكثر اللغات التي برزت فيها ظاهرة التخفيف، تخلصها من الثقل، وجرياً على ما تقتضيه بعض الأساليب من التغيير: كالحذف، والتسكين، والإعلال، والإبدال، والإدغام، والتثقل، وغير ذلك من أنواع التصريف الذي تميّز به الأسلوب العربي في أرقى صوره، وأحسن مراميه، وستتضح ملامح التخفيف هذه بدراسة نماذج منه في مواضع مختلفة، ليقف القارئ على سرّ هذا التغيير الذي هو من أهمّ خصائص الكلام العربي الفصيح. هذا، وسيسعى المقال إلى إلقاء الضوء حول مفهوم الخفة في اللغة والاصطلاح وبعض مظاهر التخفيف عند لغة العرب، سالكا المنهج الوصفي في معالجة القضايا الموجودة في المقال.

الكلمات المفتاحية: العلوم اللغوية، اللغة العربيّة، ملامح التخفيف، الذوق اللغوي، الخفة والثقل.

Abstract:

Perhaps the Arabic language is the language in which the phenomenon of mitigation has emerged most, ridding it of the heaviness, and in accordance with the requirements of some methods of change: such as deletion, sedation, elevation, substitution, diphthong, transposition, and other types of behavior that characterize the Arabic style in its finest form. , and his best goals, and these mitigation features will become clear by studying examples of it in different places, so that the reader can stand on the secret of this change, which is one of the most important characteristics of eloquent Arabic speech. This article seeks to shed light on the concept of lightness in language and terminology and some aspects of lightening in the Arabic language, adopting the descriptive approach in addressing the issue

Key Words: Linguistics, the Arabic language, features of mitigation, linguistic flair, lightness and heaviness

1. معنى الخفة في اللغة:

لا شك أنّ ظاهر التّخفيف ترتبط ارتباطاً وثيقاً بظاهرة أخرى، وهي الثّقَل؛ ولذا سيتناول المقال معنى الخفة والثّقَل على مستويين:

المستوى الأول: المستوى اللغوي:

الخفة: ضدّ الثّقَل والرّجوح، وهي خفة الوزن وخفة الحال، وخفّ القوم خُفُوفاً أي قَلُوا، وقد خفّت زمتهم، التّخفيف ضدّ التّثقيّل، واستخفّه خلاف استثقله، واستخفّه رآه خفيفاً، ومنه قول بعض النّحويين: استخفّ الهمزة الأولى فحقّقها، وقوله تعالى: {تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ}¹، أي: يخفّ عليكم حملها، والمخفّف: القليل المال، واستخفّ قومه: أطاعوه، واستخفّه الفرج، أي: ارتاح لأمره، واستخفّه الجزع والطرب: خفّ لهما فاستطار ولم يثبت، وفي خبر عليّ - كرم الله وجهه - لما استخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلّم في غزوة تبوك قال: "يا رسول الله، يزعم المنافقون أنّك استثقلّني وخفّقت مميّ"، قالها لما استخلفه في أهله، ولم يمض به إلى غزوة تبوك، معنى تخفّقت مميّ: أي طلبت الخفة بتخليفك إيّاي وتترك استصحابي معك. وفي اللسان أيضاً: خفّ الرجل: طاش، وخفّ إلى العدو خُفُوقاً؛ أي: أسرع.²

وحينما أراد صاحب اللسان تعريف الثّقَل قال: الثّقَل نقيض الخفة. والثّقَل مصدر ثَقُلَ، تقول: ثَقُلَ الشيء ثَقُلًا.... إلخ.. ويستمرّ قائلاً: التّثقيّل ضدّ التّخفيف، واستثقله رآه ثَقِيلاً³. وفي أساس البلاغة: رجل مُثْقَل، أي: حُمِلَ فوق طاقته، ولفلان ثَقُلٌ كبير، أي: متاع، وأخذتني ثَقْلَةٌ، وهي النّعسة الغالبة، واستثقل في نومه، وهو مستثقل كالميت⁴.

ويظهر جلياً من خلال المعنى اللغوي أنّ لفظ الخفة تتعاور عليه عدّة معانٍ مثل: الترك، والتّخلص، والقلة، والطّاعة، والإسراع، والطّيش، والتّوقد، والدّكاء، والاستطارة، وأخيراً هو ضدّ الثّقَل.

المستوى الأخير: المستوى الاصطلاحي:

لقد اتّضح من خلال المعنى اللغوي أنّ الخفة تُعرف بأنّها نقيض الثّقَل، والعكس، أي أنّه لا يوجد تعريف لأيهما جامعٌ مانع، فهل يوجد تعريف لهما على مستوى التّخصص؟

حقيقة الأمر أنّ عدوى عدم تعريفهما في المعاجم قد انتقلت إلى علم اللغة بكلّ مستوياته، فلم نجد هذا التعريف الجامع المانع، وإنّما وجدنا توصيفاً للظاهرة، ولكنّ السؤال الذي يفرض نفسه طالباً للإجابة عنه هو: أليس للثّقَل حدّ وللتخفيف حدّ حتّى نستطيع قياس كل منهما؟ ألا يوجد شيء نستطيع من خلاله قياس الثّقَل والخفة؟ ثمّ ما هي النسبة بينهما؟ يقول محمد العياش: "لا حدّ للثّقَل إذا اعتبرنا العنصر الثّقيل على حدّة، ولا حدّ للخفة إذا اعتبرنا العنصر الخفيف على حدّة، ولكن الخفة نسبية تُقاس بالثّقَل، والثّقَل نسبيّ يُقاس بالخفة، ومتى عرفنا ما

بينهما من النسبة، وأنّ التّثقيّل ضعف الخفيف، والخفيف نصف التّثقيّل صارت لهما حدودٌ محدّدة، ومقادير مقدّرة⁵.

- بعض ملامح التّخفيف:

من ملامح التّخفيف في النّطق: التّسكين، ويقابله التّحريك، وكلاهما مرتبط بالشّكل ولا يعتدّ بهما إلّا إذا كانا في آخر حرف من الكلمة الذي هو موضع الإعراب والبناء.

والتّسكين قد يجيء في حرف صحيح، وأكثر ما يكون في عين الكلمة اسماً أو فعلاً لقصد التّخفيف، ومنه تسكين العين في نحو: فخذ، وكثف، وعضد، وفي نحو: شهد، وعلم من الأفعال فيقال: فخذ، وكثف، وعضد، وشهد، وعلم، وإتّما جاز تسكين العين هنا كراهة الانتقال من الأخف وهو الفتح إلى الأثقل وهو الكسر في الكلمة المبنية على الحفّة وهو الثلاثي المجرد⁶.

وقد يقع التّسكين في حرف العلة، وذلك كثير كتسكين عين الفعل الأجوف الماضي نحو: قال وباع، وفي المضارع منه نحو: يقوم ويهيم، وتسكين العين من اسم المفعول نحو: مقلوب، مبيع، والأصل: قَوْلَ وَبَيْعَ، وَيَقُومُ وَيَهِيْمُ، ومُثْمُول ومَبْيُوع، وهذا التّغيير في الكلمات المتقدّمة سواء كان بالقلب، أو بنقل الحركة من عين الكلمة إلى الساكن الصّحيح قبلها قد أكسبها حفّة لم تكن قبل ذلك.

والأوّل إعلال بالقلب، والثّاني إعلال بالنّقل حسب المصطلح الصّربي، وقد يجتمع الإعلالان في كلمة واحدة كما في المصدر من الفعل الرّباعي المعتلّ العين نحو: إقامة، وإبانة، والأصل: إقوام، وإبيان، فنقلت حركة العين إلى الفاء، ثمّ قلبت الواو والياء ألفاً، فالتقى ساكنان: العين وألف الإفعال، واختلف في المحذوف منهما، فسيبويه ومن معه يحذفون ألف المصدر؛ لأنّها زائدة ولقرعها من الطّرف، والأخفش يحذف الساكن الأوّل: العين، تطبيقاً للقاعدة الصّرفيّة عند التقاء الساكنين والأوّل حرف علة، فهو أحقّ بالحذف، ولكلّ حجة وتعليل.

ويقع التّسكين أيضاً في معتلّ اللّام من الأسماء والأفعال، فالأسماء المنقوصة وهي المعتلّة بالياء نحو: الهادي، والدّاعي، يقال في إعرابها مرفوعة ومجرورة مثل: جاء القاضي، ومررت بالهادي، فالأوّل مرفوع بضمة مقدّرة، والثّاني مجرور بكسرة مقدّرة: لثقل الحركة فيهما على الياء، وبهذا التقدير سكنت الياء وواضح أنّ القاضي والهادي بالسّكون أخفّ من القاضي. وظهرت الفتحة في النّصب على الياء لحفّتها، مثل قوله تعالى: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ}⁷.

أمّا الاسم المقصور وهو المنتهي بألف ساكنة مثل: عيسى ونجوى فسكونه أصلي، والساكن لا يقبل الحركة، لذا قدّرت فيه الحركات الثّلاث.

ويشارك الفعل المعتلّ اللّام الاسم في تقدير الحركة في موضعي: الثّقل والتّعذر، فالأوّل مثل:

يدعو ويرمي، والثاني نحو: يسعى ويخشى، فالتّسكين في المواضع المتقدّمة كلّها من مظاهر التّخفيف سواء كان سكونا حياً، أو سكوناً ميتاً، كما مرّ بيانه فيما تقدّم من المثل.

ومن ملاحم التّخفيف الإعلال⁸:

الإعلال سمة من سمات التّخفيف سواء كان بالقلب أو غيره، وقد جاء في تعريفه:
"أنّه تغيير حرف العلة بالقلب أو الإسكان، أو الحذف للتخفيف"⁹. وبناءً على هذا التعريف فإنّ الإعلال ثلاثة أنواع: إعلال بالإسكان، وإعلال بالقلب، وإعلال بالحذف، ولا يخرج الإعلال عن واحد من هذه الثلاثة، وأحرفه: الواو، والألف، والياء.

والإعلال منه المقيس المطرد، وذلك عند توقّف شروطه، مثل قلب الواو والياء ألفاً إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما نحو: قال وباع، وغزا ورمى، ومنه الشاذ: وهو الفاقد للشرط، كقلب الياء همزة في: مصائب ومعائش: جمعي مصيبة ومعيشة¹⁰؛ لأصالة الياء فيهما، وللوقوف على الأثر الذي يحدثه الإعلال في الكلمة العربية يذكر الباحث بعض صورته هنا من أنواعه الثلاثة: القلب، التّسكين، الحذف.
أولاً: الإعلال بالقلب¹¹:

يتحقّق هذا النوع من الإعلال في مسألتين: الأولى: قلب حرف العلة حرفاً من جنسه كقلب الواو والياء ألفاً إذا توقّف شرط القلب فيهما.

والثانية: قلب الواو والياء همزة في مواضع، وتشاركهما الألف في نحو: رسائل ووسائل، وكلّ ذلك ينضوي تحت قاعدة صرفيّة لا يشذ عنها إلّا في بعض الكلمات القليلة التي ليس لها تأثير فيما وضع من القواعد الضابطة في مجال الصّرف.

وقد تقدّمت الإشارة إلى أنّ الألف في نحو: قال وباع، وغزا ورمى منقلبة عن الواو والياء، وواضح أنّ صام وهام أخف من صَوَمَ وهَيَمَ، ومثّل ذلك يقال في غزا ورمى. فتأثير القلب في هذه الكلمات ونحوها من سمات الأسلوب العربي الفصيح، وهو قلب لازم لا مندوحة عنه، ولا مفرّ منه.

وأما قلب الواو والياء همزة وتشاركهما الألف في بعض المواضع فقد جاء في أربع مسائل:

1- أن تقع الواو أو الياء عينا لاسم فاعل فعل أُعلت فيه نحو: حائل وهائم من حال وهام، والأصل: حول وهيم فأُعلت الواو والياء في الماضي حال وهام، ثم أُعلت الواو والياء تبعاً للفعل لوقوعهما عينا لاسم الفاعل حائل وهائم، وهذا القلب لا بدّ منه طلباً للخفة وهروباً من الثقل الذي ينفر منه البناء العربي، ولا يتقبّله بحال.

2- ويقع هذا الإعلال في كلّ واو أو ياء تلت ألف الجمع الأقصى، وهي في المفرد مدّة زائدة مثل: حلوبة وحلائب، وصحيفة وصحائف، ومثّل ذلك قلب الألف في نحو: رسالة ورسائل، ولم تقلب الياء في معيشة ومصيبة لأصالة الياء في المفرد، فقليل فيهما معايش ومصائب. وقالوا: معائش ومصائب، وهو شاذ وقليل لا يعوّل عليه. وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك.

3- ونلاحظ هذا الإعلال في الواو والياء المتطرفين إثر ألف زائدة نحو: سماء وبناء، والأصل: سماو وبناي، والقلب فيهما من دواعي التخفيف أيضاً.

4- وختام هذه المسائل التي جاءت فيها الهمزة بدلاً من الواو أو الياء هي أن تقع إحداها ثاني حرفين لينين بينهما ألف الجمع الأقصى كما في جمع أول ونيف، فيقلب حرف اللين الثاني في الجمع همزة نحو: أوائل ونيائف، والأصل: أوائل ونيائف¹²، وهذا القلب مظهر من مظاهر التخفيف في المسائل كلها، وعدم الأخذ به عيب مذموم وأمر مرفوض مخلٌ بفصاحة الأسلوب العربي.

ثانياً: الإعلال بالتسكين¹³:

الإعلال بالتسكين، أو بالنقل: وهو نقل حركة الحرف العليل إلى الساكن الصحيح قبله للتخفيف، إذ الحركة تثقل على الحرف العليل، والحرف الصحيح أولى بحمل الحركة، وأكثر ما يكون هذا الإعلال بنقل حركة عين الكلمة إلى الفاء، ويطرد ذلك في المواضع الآتية:

- 1- في الفعل المضارع من الأجوف نحو: يقول ويهيم، والأصل: يَقُولُ ويهيم، بضم الواو وكسر الياء، والصورة بعد النقل أخف من الأولى، وهذا واضح يدرك بأدنى تأمل.
- 2- ومما نقلت فيه حركة العين إلى الساكن الصحيح مصدر الفعل الأجوف على وزن الإفعال أو الاستفعال نحو: إقامة واستقامة، وإبانة واستبانة، والأصل: إقام وإقام واستقام، وإبيان واستبيان، فسكنت العين عند نقل حركتها إلى ما قبلها، والتقت مع ألف المصدر ساكنة، فحذفت إحدى الألفين، وعوض عنها التاء في الآخر، وتقدم الخلاف في المحذوف منهما بين سيبويه والأخفش، ووزن إقامة عند سيبويه (إفعلة) وعند الأخفش (إفالة) والتأخر في أصل الكلمة وما دخلها من نقل وحذف يدرك المقصود من هذا التغيير، وما صحبه من تعويض التاء، وقد يستغني عنها بالمضاف إليه كما في قوله تعالى: {وَأَقَامِ الصَّلَاةَ}¹⁴.

- 3- وجاء نقل الحركة للتخفيف في اسم المفعول من الأجوف نحو: مقول ومبيع¹⁵، والأصل: مقول ومبيوع بضم الواو والياء فيهما، وبعد النقل صاراً مقولاً ومبيعاً بقلب الضمة في مبيع كسرة لمناسبة الياء، وبقيت الضمة في مقول؛ لأنها تناسب الواو.

ثالثاً: الإعلال بالحذف¹⁶:

تدور مسائل الإعلال مع أحرف العلة: قلباً وتسكيناً وحذفاً، وتشاركها في ذلك الهمزة في بعض المواضع، وما خرج عن ذلك فلا يعد من باب الإعلال.

والإعلال بالحذف منه ما هو مقيس مطرد، ومنه ما هو شاذ نادر الورد في لسان العرب، والأول ما كان لعلّة صرفيّة، والثاني الحذف الاعتباري، وهو حذف لا ينضبط تحت قاعدة الحذف الصرفيّة، وليس لوجوده سبب إلّا التخفيف، وقبل إيراد نماذج للإعلال بالحذف يوضح الباحث الفرق بين الحذف والإضمار؛ فالمبتدئون من

الطلاب لا يفرّقون بينهما، ويظنّون أنّ الحذف والإضمار شيء واحد، وحقيقة أمرهما أنّهما مختلفان اختلافاً كلياً، فالمحذوف معدوم والمضمر موجود، ويوضّح الفرق بينهما أمر الفاعل في نحو: قم وطالما، فقم: فعل أمر وفاعله مضمر تقديره أنت، وطالما: فعل ماض مكفوف بما فاعله محذوف. ولهذا اعتبر (قم) جملة من فعل ظاهر، وفاعل مضمر، و(طالما) فعل وحرف ولا فاعل هنا.

نماذج من الحذف المقيس:

أشير فيما سبق إلى أنّ الحذف المقيس هو الذي ينضبط تحت قاعدة صرفيّة، ومن هذه القواعد حذف فاء المثال الواوي المكسور العين¹⁷، من المضارع نحو: وعد يعد، ووزن يزن، ووصل يصل، إلخ، ووزن المضارع بعد التّخفيف يعل، وأصل يعد ويزن: يوعد ويوزن، فالواو هنا لا تطبق البقاء في هذا الموضع لوجودها بين ياء وكسرة، ويعبر المبتدئون عن ذلك بوقوعها بين (عدوتيهما) الياء والكسرة، وهو سبب الثقل في الكلمة ومحذف الواو خفت الكلمة، وصارت قاعدة لحذف الواو إذا وقعت هذا الموقع، ولم يقف الحذف عند المضارع، وإنّما سحبوا ذلك على فعل الأمر والمصدر من هذا الفعل، فقالوا: زن وعد، وزنة وعدة، مع أنّ الواو فيهما لم تقع بين الياء والكسرة، وهذا بالمحمل لهما على المضارع الذي توقّر فيه شرط الحذف، والدّاعي لهذا الحمل إنّما هو طلب التّخفيف لا غير.

وأما المثال اليائي والواوي المفتوح العين فلا حذف فيهما، لحفّة الياء في الأوّل والفتحة في الثّاني، نحو: ييس ييس، وفي القرآن الكريم: {قَالُوا لَا تَوْجَلْ}¹⁸.

ومن الحذف ما يكون عند التّقاء الساكنين، والأوّل حرف علّة، أو يحرك بالكسر إذا كان حرفاً صحيحاً، وهو الأصل؛ لأنّه أقلّ إخلالاً باللفظ، فلا يعدل عنه إلّا إذا تعدّر بوجه.

ومما حذف فيه حرف العلّة للساكنين قوله تعالى: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ}¹⁹، وقوله تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}²⁰، وقوله جلّ شأنه: {وَقِيلِ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰٰخِلِينَ}²¹.

وهو حذف في النّطق لا في الخطّ، لأنّ التّخفيف الذي يصار إليه من سمات النّطق لا الخطّ. هذه مسائل من الإعلال ساقها الباحث على سبيل المثال لا الحصر؛ لأنّ مواضع الإعلال في لسان العرب كثيرة لا تتسع مثل هذه الصّفحات لاستقصائها، وذكر المزيد منها.

- الإبدال²²:

الإبدال في اللغة العربيّة نوع آخر من أنواع التّخفيف تجلّت مظاهره في كثير من الألفاظ، وهو باب اهتمّ الصّرفيون بدراسته وبيّنوه بياناً شافياً، وإنّما أراد الباحث إثبات نماذج منه هنا بيان الأثر الذي يضيفه هذا النوع من التّغيير، ووصولاً إلى الهدف من دراسة موضوع الإبدال في المجال اللغوي.

وحقيقة الإبدال: هو وضع حرف مكان آخر مطلقاً²³. وجاء التّقييد ب "مطلقاً" لإخراج الإعلال بالقلب لاقتصاره على أحرف العلّة، فكلّ إعلال إبدال، ولا عكس، لتحقّقهما في نحو: باع

ودعا، وانفراد الإبدال في نحو: اضطرب، واتعد. والدّاعي إلى الإبدال هو الفرار من الثقل الناشئ عن اتصال حرف بآخر لا ينسجم معه في النطق، وأنت ترى الفرق واضحاً بين اللفظين: اتعد، واوتعد، واتصل، واوتصل، فالتغيير الذي كان بإبدال الواو تاء أوجد نوعاً من التوافق بين الحرفين: البديل والمبدل منه، وقد كان ذلك باتحاد الحرفين، وإدغام الأول في الثاني، وبذلك خفت الكلمة في النطق، وهذا العمل مطلوب ولازم في جميع مواضع الإبدال الذي ينقسم إلى كثير شائع الاستعمال، وإلى قليل وشاذ أحياناً. ولتوضيح ظاهرة الإبدال هذه يذكر الباحث هنا مسائل منه، وهي كثيرة متنوعة:

أولاً: الإبدال المقيس²⁴:

وله أحرف جمعت في قولهم: (هدأت موطياً) وفي هذا النوع من الإبدال تتجلى ظاهرة التخفيف بكل وضوح، وهو من سمات الحسن والجمال في الكلام العربي الذي يرفض الركابة والثقل في أية صورة من صوره المختلفة.

1-ومن أوضح أنواع هذا الإبدال قلب الواو والياء والألف همزة في نحو: قائل وبناء ورسائل، والفرق بين الأصل والفرع في الكلمات المذكورة ونحوها فقائل وبناء ورسائل أخف من قاول وبنائي، وبذلك صار إبدال هذه الأحرف في مثل هذه المواضع أمراً لازماً لا عدول عنه.

2-ومن مسائل الإبدال المقيس إبدال التاء من الواو الواقعة فاء الافتعال وما تصرف منه، ففي الألفاظ: متعد الاتعاد، اتعد، إلخ قلبت الواو تاء لتخف الكلمة بهذا التغيير، وبالمقارنة بين الأصل والصورة الطارئة: اوتعد، اتعاد، اتصل، موّعد: متعد، ندرك أثر الإبدال في التخلص من الثقل.

3-ومن هذا النوع إبدال التاء دالاً بعد الدال الواقعة فاء الافتعال نحو: اذكر وإبدالها طاء بعد الصاد نحو: اضطرب، وإبدالها دالاً بعد الزاي نحو: اذرع وغير ذلك من الألفاظ التي تمثل الإبدال الشائع المقيس، وهو كثير في الاستعمال اللغوي.

ثانياً: الإبدال الشائع²⁵:

جاء الإبدال الشائع في كثير من الألفاظ أخذت بالسماع عن العرب للتخفيف وهي إن لم تدخل تحت قاعدة الإبدال المقيس فقد عدت من الإبدال، ولا ضير في استخدامها في النطق والتعويل عليها وإدخالها تحت ظاهرة الإبدال، فمن ذلك إبدال التاء من الواو في كلمات كثيرة نحو: تجاه، وتراث، وتقية، وتقوى، وتولج، وتخمّة، وتكأة، وتكلان، وتترى، وتلبد، وتلاد، وبنّت، وأخت، وكلتا، ومن واو القسم نحو: تالله، ومن السين في (ست)، وأصله: (سدس) وفي الناس، وأكياس: جمع كيس فقالوا: النات، وأكيات، وأبدلت الهمزة من الواو فقالوا: إسادة، وإيشاح في: وسادة ووشاح، وهذا النوع من الإبدال يوقف فيه على السماع، ولا يصحّ القياس عليه. وكلّ ذلك بهدف التخفيف، وطرح الثقل الذي يعدّ عيباً من العيوب.

ثالثاً: الإبدال الشاذ:

وهو الإبدال الذي لا يخضع لقاعدة الصّرفية، ولذلك قلّ وجوده في لغة الضّاد، ومن هذا النوع إبدال الياء المشدّدة جيما كما في قول الشّاعر²⁶:

..... خالي عويّف وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج

أراد: (علي وبالعشي) فالجيم في الموضعين مبدلة من الياء.

ومن هذا النوع أيضاً إبدال الهمزة من العين في قولهم: (أباب البحر) والأصل: عباب البحر، وإبدالها من الألف إذا كان بعدها ساكن، قرأ بعضهم: {وَلَا الضَّالِّينَ}²⁷ والأصل: {وَلَا الضَّالِّينَ}، وقوله تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ}²⁸، والقراءة الفصيحة: (ولاجانّ) وما روى من أنّ العجاج كان يهمز (العالم، والخاتم) وعلى هذه اللغة جاء قول الشاعر²⁹:

يا دار سلمى اسلمي ثمّ اسلمي فخذنق هامة هذا العالم

وبهذا ينتهي مبحث الإبدال بأنواعه الثلاثة: المقيس، والجائز، والشاذ.

الإدغام³⁰:

هذه هي المسألة الأخيرة فيما اختاره الباحث لدراسة ملاحم التّخفيف، وسيتوقّف فيها بعض الوقت لاقتطف من ثمارها زادا يبلغه المراد من تناوله لهذا النوع من أنواع التّغيير الذي يحفل به الأسلوب العربي ولا ينفك عنه بحال من الأحوال.

وحقيقة الإدغام في اللغة هو: (الإدخال). ولا يبعد معناه الاصطلاحي عن هذا، فإدخال الحرف الأوّل في الثاني بعد تسكينه هو الإدغام عينه، ولكن بشرط أن يقع التّجانس بين الحرفين المدغمين بالأصالة أو بطريق الإبدال، فالأوّل وهو الكثير في الاستعمال نحو: ردّ وحلّ وفكّ، والثاني نحو قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا}³¹، ونحو قوله جلّ شأنه: {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ}³²، والأصل: تداركوا فيها، بالتّاء فأبدلت التّاء دالاً وأدغمت في الدّال، والأصل في ازيّبت: تزيّبت بالتّاء أيضاً فأبدلت زايّاً وأدغمت في الزّاي، فالإدغام في الكلمتين كان بطريقة الإبدال.

وإدغام العين في اللّام عند التّجانس كما في المثل المتقدّمة هو لازم إلا في بعض الألفاظ التي ستأتي، وذلك هروباً من ثقل الفكّ، وطلباً للتّخفيف الذي أسست قاعدة الإدغام عليه، ومن السّهل أن تدرك التّخفيف بين قولك: شدّ وشدّد، وحلّ وحلّل، وفرّ وفرر، وهكذا. وإذا وقع الإدغام في المصدر وقع في جميع ما تفرّع عنه، مثال المصدر قوله تعالى: {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}³³، والفعل الماضي: {وَوَظَنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ}³⁴، والفعل المضارع: {وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا}³⁵، وفعل الأمر، كقول الشّاعر³⁶:

فظنّ بسائر الإخوان شرّاً ولا تأمن على سرّ فؤاد

ومثل ذلك اسم الفاعل نحو: حالٌّ و فارٌّ إلخ، إذا وقع الفصل بين المثلين امتنع الإدغام، وهذا واقع في اسم المفعول نحو: مظنون، ومحلول، ومفكوك؛ لأنّ الواو فصلت بين الحرفين المتماثلين، فامتنع الإدغام. ويستثنى من قاعدة الإدغام هذه بعض الألفاظ قدم فيها الفكّ على الإدغام؛ لأنّها عرت عن الثقل وتوفر فيها الغرض المطلوب بالإدغام وهو التّخفيف، وهذه الألفاظ هي:

1- أن يقع المثلان في أول الكلمة نحو: (ددن) و (ببر)³⁷ بالفكّ فيهما؛ لأنّ المثلين تصدرا، فلو أدغمت الفاء في العين لسكن أول الكلمة، وهم لا يبتدئون بالسّاكن.

2- وألاً يكون في وزن ملحوق، أي المثلان نحو: (قردد) للمكان الغليظ المرتفع، و (مهدد) اسم لامرأة، فالدال الأخيرة فيهما مزيدة للإلحاف ب (جعفر)، فإنّ إدغام الأول في الثاني يؤدّي إلى ذهاب مثال الملحوق به.

3- ألا يكون الاسم على وزن (فعل) بفتححتين (كطلل)، و (مدد)، أو على (فعل) بضمّتين نحو: (دُلّل) و (جُدّد) أو على (فعل) بكسر الفاء وفتح العين نحو: (لَمَم) و (كَلَل)، أو على وزن (فعل) بضم الفاء وفتح العين نحو: (دُرّر) و (وَجُدّد)³⁸.

وقالوا: (ألّ السقاء) إذا تغيّرت رائحته، و (لحّحت عينه) إذا التصقت أجفانها من وجع أو رمص، وجاء الفكّ في هذين اللفظين مع اتّصال المثلين فيهما فعد شاذّاً يحفظ ولا يقاس عليه³⁹.

وقد يلتقي المثلان في كلمة ويتعذّر الإدغام بسبب مانع: كأن يتّصل الفعل المدغم عينه في لاهه بضمير رفع متحرّك نحو: حللت بالمكان، وفككتنا الأسير، فاتّصال الفعل بضمير الرفع منع من إدغام أول المثلين في الثاني. ويجوز الفكّ والإدغام إذا دخل عليه جازم كقوله تعالى: {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ}⁴⁰، وقوله جلّ شأنه: {وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى}⁴¹، وقوله تقدّست أسماؤه: {وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}⁴²، والفكّ لغة الحجازيين، وقرئ بالإدغام: {وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ}⁴³، وهي لغة بني تميم⁴⁴. ومّا جاء بالفكّ فعل التّعجّب على وزن (أفعل) نحو: أحبب بريد، وأشدد بيباض ثيابه.

ومّا لزم فيه الإدغام (هلم) وهو اسم فعل أمر عند الحجازيين. وهو فعل أمر عند بني تميم. وجاء إدغام التّون السّاكنة في خمسة أحرف بعد إبدالها حرفاً مجانساً لما بعدها، والأحرف هي: اللّام، والرّاء، والياء، والواو، والميم، تقول: من لدنه، ومن رتّك، ومن يشاء، ومن وال، ومم تخاف؟ وهذا الإدغام في النطق لا في الخط، وكلّ ذلك من دواعي التّخفيف والفرار من الثقل. الإدغام الجائر⁴⁵:

هذا نوع آخر من الإدغام وهو الجائر، بمعنى: أنّ الخيار ثابت في إجراء الإدغام وعدمه، فالفعالان: (حيي) و (عيي) يجوز فيهما إدغام الياء في الياء، ويجوز الفكّ، فعلى الأول تقول: (حي) و (عي) بياء مشدّدة وعلى الثاني تقول: (حيي) و (عيي) بياءين، وشرط ذلك أن لا يكون المثلان فيه ياءين يلزم تحريكهما، أمّا إذا كانت حركة المثلين فيه عارضة بسبب العامل فيجب الفكّ نحو: أن يُحيي الموتى، وجاز الفكّ والإدغام وحذف

إحدى التّاءين في المضارع المبدوءة بهما نحو: (تتجلى) و(تتعلم) بالفك، وتُجلى وتُعلم بالإدغام، ولسكون التّاء الأولى للإدغام اجتمعت همزة الوصل. وجاء حذف التّاء من المضارع في قوله تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى}⁴⁶، وقوله جلّ شأنه: {تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا}⁴⁷. ويجوز الإدغام أيضاً إذا كان المثلان في كلمتين بأن كان أولهما في آخر كلمة، وثانيهما في أول كلمة أخرى نحو: (جعل لك) وذلك بشرطين: أحدهما: ألا يكونا همزتين نحو: قرأ آية، فإنّ الإدغام في الهمزتين رديء، والثاني: ألا يقع أولهما بعد ساكن نحو: (شهر رمضان) فهذا لا يجوز إدغامه عند جمهور البصريين.

وبعد هذه الوقفات على مسائل الإدغام بنوعيه: القياسي والجائز لم تبق إلا مسألة واحدة يختم بها هذا المقال، وهي واقعة بين الإعلال والإدغام لاشتغال طرفيها على موجب الإعلال والإدغام، وسنرى كيف قدّم فيها الإدغام على الإعلال، وهو ما سنقف عليه في كلمة (أئمة) وهي جمع إمام، كأحجبة، وألسنة: جمعي: حجاب ولسان، وفي (أئمة) همزتان: الأولى مفتوحة والثانية ساكنة، إذ الأصل فيها: (أئمة) ومقتضى القياس فيها أن تقلب الهمزة الثانية ألفاً، كما في (آمن) و(آدم) و(آخر)، وفي آخر الكلمة مثلاً: الميمان، وطبقاً للقاعدة الصّرفية هي أن تسكن الميم الأولى وتدغم في الثانية وهو ما حصل في الكلمة، والسؤال هنا لم قدّم الإدغام على الإعلال؟ والجواب عن ذلك: إنّما قدّم الإدغام لأن المثلين في آخر الكلمة، وآخرها أثقل طرفيها، إذ الكلمة يتدرج ثقلها بتزايد حروفها، ومن اللائق بالحكمة الابتداء بتخفيف الأثقل ولذلك قلبت اللام دون العين في نحو: نوى وطوى للسبب المذكور⁴⁸.

ويجوز في (أئمة) أن تخفف الهمزة الثانية بقلبها حرفاً من جنس حركتها، فتقلب ياء، وحينئذ يقال: تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فلم لم تقلب ألفاً؟ كما في قال وباع؟ والجواب: أنّ الياء لم تقلب ألفاً لأنها فاء الكلمة، والقلب إنّما يكون إذا وقعت الواو والياء عينا أو لهما، ولذلك بقيت الواو والياء في (أود) و (أيل). وبهذه المسألة ينتهي المقال الذي جعلته في الكلام على ملاحم التّخفيف التي هي من أهم خصائص الأسلوب العربي..

الخاتمة:

هذه الورقة كشفت جانباً من جوانب نظام اللغة العربيّة ظهر من خلال قواعد التّحاة حول ملاحم التّخفيف، وليست هذه الأحكام التّخفيفيّة ناشئة من فراغ، أو مخالفة لقواعد المنطق والذّوق، ولكنها جاءت متّسقة مع الذّوق اللغوي والاستعمال للغة العربيّة، ومتّسقة مع بقية القواعد المنظمة لجوهر اللغة.

هذا، وقد توصّلت الورقة إلى نتائج منها:

- إثبات أنّ ظاهرة التّخفيف نظرية متكاملة، اتّكأت عليها الدّراسات الصّرفية بمستوياتها المختلفة، هذه

الظّاهرة نتجت عن الاستخدام اللغوي، فوضع لها الصرفيون هذه القواعد التي قامت الورقة بدراستها.

-إثبات أنّ الكلمات الخفيفة خفة لفظية أو معنوية يكون لها من القواعد السلوكية غير ما للكلمة الثقيلة، بحيث يراعى عند التصرف في اللفظ ألا يؤدي هذا التصرف - في اللفظ الثقيل - إلى ثقل آخر يضاف إلى ثقلها، فتراعى الخفة للفظ الثقيل، والثقل للفظ الخفيف، حتى يحدث اختلاف بين اللفظين شكلاً، ومعه التوازن والاعتدال.

-لابدّ من النظر في مخزون تراثنا اللغوي من كتب الأصول في الصرف وأمّهات كتب اللغة حتّى نستطيع أن نصل إلى اكتشاف عبقرية النظام في اللغة العربية مستخدمين الوسائل الحضارية الحديثة وأجهزة الإحصاءات، عندها سنرى أنّ هذه النتائج التي يتوصل إليها من خلال الإحصاءات لن تختلف كثيراً مع ما ذهب إليه القدماء، بالرغم من عدم توافر أجهزة البحث لديهم، وهذا ما توفّر لعلمائنا في العصر الحديث، فقد كان القدماء لا يمتلكون إلا الملاحظات الذاتية، ومع هذا استطاعوا أن يصلوا إلى هذه النتائج القيمة في العلوم اللغوية.

-إنّ الحذف في اللغة سواء كان حركة أو حرف إنّما يتمّ في كثير من أحواله طلباً للخفة، بشرط ألا يكون الحذف مُخلّاً بشكل الكلمة أو الجملة مع وجود قرينة لعدم الإخلال بالمعنى، وظهر أنّ كثيراً من أسباب حذف الحروف يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة الخفة والثقل.

-إنّ معظم التطوّرات لكلمات اللغة تعتمد على مراعاة جانب الخفة عند التّغيير، وذلك مثل: التغيرات التي تحدث عند تصريف الأفعال بعضها من بعض، أو التغيرات التي تحدث عند التّصغير أو التّسبب أو التّثنية أو الجمع.... إلخ.

-ينبغي التأكيد على أنّ التّخفيف له دور كبير في توصيف ظاهرة الإبدال بكلّ مظاهرها، ومنها الإعلال، وذلك مرتبط بخفة الحروف أو ثقلها وانسجامها مع الحركات، وتجانسها، والتوازن بين الخفة والثقل في نسيج الكلمات التي تتألف منها اللغة عن طريق تمازج الأصوات بعضها ببعض.

يجب أن تحتوي مقدمة المقال على تمهيد مناسب للموضوع، ثم طرح لإشكالية البحث بالإضافة إلى تحديد أهداف البحث ومنهجيته.

¹ سورة التّحّل، الآية: 80.

² ابن منظور، لسان العرب، ط دار المعارف، مادة (خفف) ج14/1212.

³ المرجع السابق، مادة (ثقل) ج6/493 وما بعدها.

⁴ الزّخشي، جار الله، أساس البلاغة، ط دار الكتب المصريّة، 1923م، مادة (ثقل) 96/1.

⁵ نظرية إيقاع الشعر العربي، المطبعة العصرية بتونس، 1976م، ص44، ولا أدّر لم كان الخفيف نصف الثّقيل؟ ولما ذا حدد هذا القدر بصفة خاصة؟ وفي تصوير الباحث أنّ ذلك التحديد - وإن لم يكن دقيقاً - محاولة جادة لتحديد الفرق بين الخفيف والثّقيل وتقريبهما إلى الدّهن.

⁶ شرح الشافعية، للرّضي، 42/1.

⁷ سورة الأحقاف، الآية: 31.

⁸ المقتضب، 95/1، و ابن عقيل، 234/2.

⁹ شرح الشافعية، للرّضي، 6/3 و ابن عقيل، 211/4.

- ¹⁰ وبالمهزة قرأ خارجة بن مصعب على تشبهها بيا صحيفة، ينظر: شواذ ابن خالويه، ص42.
- ¹¹ همع الهوامع، 276/6، و النحو الوائي، 757/4.
- ¹² ابن عقيل، 525/2.
- ¹³ ابن عقيل، 525/2، و همع الهوامع، 273/6، و التصريح، 393/2.
- ¹⁴ سورة التّور، الآية: 36.
- ¹⁵ ابن عقيل، 528/2، و النحو الوائي، 794/4.
- ¹⁶ التصريح، 595/12، و النحو الوائي، 800/4.
- ¹⁷ الأصول، 276/3، و الممتع 426/2.
- ¹⁸ سورة الحجر، الآية: 53.
- ¹⁹ سورة إبراهيم، الآية: 10
- ²⁰ سورة الإسراء، الآية: 53
- ²¹ سورة التّحریم، الآية: 10
- ²² المقتضب، 61/1، و الأصول، 246/3، و الممتع، 319/2
- ²³ شرح الشافعية، للرضي، 197/1، و التصريح، 366/2.
- ²⁴ المقتضب، 61/1، و الأصول، 246/3
- ²⁵ الممتع 383/1، و شرح الشافعية، 205/3
- ²⁶ الكتاب، سيبويه، 184/4، و المنصف، 178/2
- ²⁷ شواذ، ابن خالويه، ص1. هي قراءة أبي أيوب السخيتاني، ينظر:
- ²⁸ قرأ بذلك عمرو بن عبيد، ينظر: شواذ، ابن خالويه، المرجع السابق، ص15
- ²⁹ البيت في سر صناعة الإعراب، ص101، و الممتع، 324/1.
- ³⁰ ينظر موضوع الإدغام في: الارتشاف، 337/1، وابن عقيل، 538/1، و التصريح، 399/2
- ³¹ سورة الأعراف، الآية، 36
- ³² سورة يونس، الآية: 24
- ³³ سورة الحجرات، الآية: 12
- ³⁴ سورة التّوبة، الآية: 118
- ³⁵ سورة الإسراء، الآية: 52
- ³⁶ لم يقف الباحث على قائل البيت، وهو من الوافر
- ³⁷ الدد: اللهو واللعب، والبهر: حيوان يشبه التّمر، ينظر: ابن عقيل، 538/2، و التصريح، 39/2
- ³⁸ الارتشاف، 340/1، و التصريح، 399/2، وجُدّد: بضمّتين جمع جديد، وجُدّد: بالضم والفتح جمع جُدّة بضم الجيم وتشديد الدال: وهي الطريق في الجبل.
- ³⁹ ابن عقيل، 539/2
- ⁴⁰ سورة البقرة، الآية: 217
- ⁴¹ سورة طه، الآية: 81
- ⁴² سورة الأنفال، الآية: 13
- ⁴³ سورة الحشر، الآية: 4
- ⁴⁴ ابن عقيل، 542/2، و التصريح، 401/2
- ⁴⁵ ابن عقيل، 540/2، و التصريح، 399/2

⁴⁶ سورة الليل، الآية: 14

⁴⁷ سورة القدر، الآية: 4

⁴⁸ شرح الشافية، للرضي، 27/1، بتصرف